

الفصل الرابع

الجهاد

تم تغيير القبلة في نهاية فترة من عدم اليقين . كان محمد (ﷺ) وأصحابه يتقبلون هنا وهناك في قلق، باحثين عن إرشاد في اضطرابهم . وقد علم محمد (ﷺ) أن على النبي أن يحدث تغييراً في العالم ، ولا يمكنه ببساطة أن ينسحب من التيار الرئيسي للحياة، فعليه أن يضع المشيئة الإلهية في حيز التنفيذ، ويقدم مجتمع المساواة والعدل . ولكن الهجرة دفعت المسلمين بعيداً عن مركز الأحداث في مكة، وإلى وضع شاذ . وبرغم أن محمداً (ﷺ) بدأ في إرساء قواعد الإصلاح الاجتماعي، فقد عرف أنه ليس بمقدوره أن يترك أثراً باقياً في بلاد العرب ما دام محصوراً ومعزولاً في المدينة . كانت مكة «أم القرى» هي الحاسمة في تطوير العرب، حيث احتاج العرب عبقرية قريش التجارية . أصبحت مكة مؤخراً هي مركز العالم الإسلامي، يتجه المسلمون إليها في الصلاة، ولكنها بدت بعد الهجرة كما لو كانت الحبيب الغائب صعب المنال⁽¹⁾ . لم يتمكن المسلمون من الحج إلى مكة كبقية العرب، وأدرك محمد (ﷺ) أن مكة هي مفتاح نجاح مهمته . استأصلت عداوة قريش الأمة الإسلامية من انتماؤها القبلي، وألقت بها إلى سجن العزلة . ودون مكة، سيكون مثال الإسلام التلاشي . على محمد (ﷺ) إذن أن يبرم سلاماً مع قومه، ولكن بعد الصدمة الأولى للهجرة، بدا أن معظم قريش قد نسى المسلمين .

كان على محمد (ﷺ) قبل أن يبحث عن صلح مع مكة، أن يجعل مكة تشعر به، وكان عليه أيضاً أن يؤمن وضعه في المدينة حيث عرف أنه بالنسبة لأكثر أهل المدينة، كان محل اختبار . لقد تحدثت المدينة جيروت قريش بقبول المهاجرين؛ لأنها توقعت

بعض الميزات المادية(*)، ويجب على محمد (ﷺ) أن يوفر ذلك، أو على الأقل عليه أن يمنع إرهاب المهاجرين لاقتصاد أهل المدينة. ولكن كان من الصعب على المهاجرين أن يكتسبوا أرزاقهم، فمعظمهم كانوا تجاراً وممولين، بمثابة بنوك متنقلة، وفرص التجارة في المدينة قليلة جداً، نظراً لاحتكار أثرياء العرب واليهود التجارة. لم يكن للمهاجرين خبرة بالزراعة، وعلى أي حال، كانت الأراضي الصالحة للزراعة مزروعة بالفعل من قبل أهل المدينة. وبذلك سيصبح المهاجرون عبئاً على الأنصار، ما لم يجدوا مصدراً مستقلاً للدخل، وكانت هناك وسيلة واضحة لتحقيق ذلك.

كان موقع المدينة مناسباً للهجوم على قوافل مكة التجارية في طريقها إلى سوريا، وبعد وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة بقليل، بدأ في إرسال عصابات من المهاجرين في حملات للإغارة^(٢). لم يكن الهدف إراقة الدماء، ولكن تأمين مصدر للدخل من الجمال والبضائع التي عليها، والإمساك بالقرشيين لأخذ الفدية عنهم. لم يكن أحد ليصدم بمثل هذا التطور، فقد كان الغزو حلاً طبيعياً في أوقات الشدة، ولكن استغرب بعض العرب تهور المسلمين مع قريش الجبارة، خاصة أنهم كانوا، وبوضوح، عديمي الخبرة القتالية.

أرسل محمد (ﷺ) خلال الستين الأوليين من الهجرة ثمانى حملات. لم يكن يخرج بنفسه في تلك الحملات، ولكن كان يفوض أمراء مثل حمزة وعبيدة بن الحارث، ولكن كان من الصعب الحصول على معلومات دقيقة عن خطوط سير قوافل التجارة، ولم ينجح أى من تلك الحملات.

لم تكن قريش قبيلة حرب، فلقد تركت حياة البداوة منذ زمن طويل، وفقدت عادة ومهارة الغزو، ويظهر القرآن أن بعض المهاجرين لم يستحسنوا القتال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] (٣).

ولكن لم يثن ذلك محمداً (ﷺ) عن عزمه. ورغم أن المهاجرين كانوا بحاجة ماسة لمصدر دخل، فلم يكن السلب غرضه الأساسى. عاد أولئك المغيرون بأيدٍ

(*) كانت مكة مركز التجارة في بلاد العرب، فكيف يأمل أهل المدينة أن يحصلوا على بعض الميزات المادية بعدانهم لذلك المركز؟.

فارغة، ولكنهم على الأقل لفتوا نظر مكة للمسلمين. انزعجت قريش، واضطرت لاتخاذ احتياطات لم تفكر فيها من قبل، واشتكى التجار من اضطرابهم لتغيير مساراتهم لأنهم أصبحوا عرضة لهجمات المسلمين، وتعطلت التجارة المكية قليلاً. وفي (وفى ربيع أول ٢ هـ/ يولييه ٦٢٣م)، قاد محمد (ﷺ) بنفسه غزوة على قافلة كبيرة يقودها أمية بن خلف، وكانت الغنائم مبشرة حتى أنه تطوع ٢٠٠ مسلم للحملة، ولكن أيضاً أفلتت القافلة، ولم يكن هناك قتال.

لم يكن الغزو بحاجة إلى تبريرات نظرية في حياة عرب الصحراء، وكان ينظر إليه على أنه ضرورة لا مفر منها أيام الأزمات. ولكن كان محمد (ﷺ) مصمماً على تجاوز الأعراف القبلية القديمة، أمر القرآن المسلمين أن يقولوا «السلام عليكم» للكافرين، ولم يأمر بمهاجمتهم وهم يقومون بتجاراتهم وأعمالهم، ولكن بعد وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة بقليل، نزل عليه وحى ذو نزعة أكثر عسكرية:

﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩: ٤١] (٤).

بدأ القرآن في تطوير نظرية للحرب العادلة، حيث كانت الحروب الاعتدائية جديرة بالثناء في حياة عرب الصحراء، ولكن في القرآن، كان الدفاع عن النفس هو التبرير الممكن الوحيد لأعمال الحرب، وكانت الحروب الاستباقية مدانة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٠] (٥).

وكانت الحرب دائماً شراً فظيماً، ولكنها ضرورية في بعض الأحيان للحفاظ على القيم، مثل حرية العبادة. حتى هنا، لم يتخل القرآن عن تعدديته: يجب حماية معابد اليهود وكنائس المسيحيين، تماماً كحماية المساجد. شعر المسلمون بأنهم عانوا وطأة اعتداء رهيب؛ فاضطرابهم للخروج من مكة ليس له ما يبرره، وإخراجهم من القبيلة انتهك أعمق المقدسات، وأصاب قلب الشخصية المسلمة.

ولكن محمداً (ﷺ) اتخذ مسلكاً خطيراً. قد كان يعيش في مجتمع مدمر العنف، ولم ير تلك الهجمات - في وقت شدة الحاجة - كوسيلة للدخول، ولكن - في الأساس - طريقة لحل مشاكله مع قريش. ولقد اكتشفنا في حاضرننا أن شن الحروب لتحقيق السلام هو مغامرة محفوفة بالمخاطر. يمكن لقساوة الممارك أن تزلزل المبادئ الرئيسية التي يتقاتل من أجلها المحاربون، حتى أنه يصبح بغير مقدور أى من الطرفين المتقاتلين أن يزعم سعيه وراء المبادئ الأخلاقية. حاول محمد (ﷺ) أن يجعل لغزواته أرضية أخلاقية، ولكن لم تكن لديه خبرة الحملات العسكرية الطويلة، وسيعلم أنه مع بدء الحروب، تتخذ دائرة العنف قوتها الدافعة المستقلة، ويمكنها أن تتصاعد بشكل مأساوى خارج نطاق السيطرة.

في البداية، حارب محمد (ﷺ) طبقاً للقواعد التقليدية، ولكن في (رجب ٢ هـ يناير ٦٢٤م)، قبيل تغيير القبلة، خاض تجربته في الحرب غير المتوقعة^(٦). خلال الشتاء، كانت قريش تبعث قوافلها التجارية إلى اليمن في الجنوب، فلا تمر على المدينة شمال مكة. ولكن كان محمد (ﷺ) دائماً متلهفاً لجذب انتباه قريش، فأرسل مجموعة إغارة صغيرة من تسعة رجال^(*) للهجوم على إحدى القوافل التجارية. كان ذلك في نهاية رجب، أحد «الشهور الحرم» التي يمتنع فيها القتال في بلاد العرب، وفي آخر يوم من رجب، وجد المسلمون قافلة صغيرة مخيمة في نخلة^(**)، ماذا يفعلون؟ إذا انتظروا لليوم التالي، حتى ينتهى الشهر الحرام، دخلت القافلة مكة. قرر المسلمون الهجوم، وقتل أول سهم أحد التجار، وفر الباقون، لكن استطاع المسلمون الإمساك برهيتين^(***) أحضروهما مع تجارة القافلة إلى المدينة.

ولكن بدلاً من أن يقابلهم المسلمون استقبال الفاتحين، ارتعب المسلمون من ذلك القتال في الشهر الحرام، ولعدة أيام، لم يدر محمد (ﷺ) ماذا يفعل. لقد تخلى بالفعل عن معظم الديانة المكية، وربما قد تخيل أنه يستطيع التخلص من بقيتها في مسألة القتال في الشهر الحرام. كان الهجوم ناجحاً، لم يكن فقط من ناحية الغنائم، ولكنه أظهر لقريش أنه يستطيع مهاجمتها على أعتاب دارها. ولقد أثار محمد (ﷺ) إعجاب أهل المدينة، ولكن كان هناك التباس وريبة في العملية كلها. لم يسبق لمحمد

(*) وتسمى بسرية عبد الله بن جحش.

(**) وهو بستان ابن عامر الذي كان قرب مكة.

(***) هما: عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان.

(ﷺ) أن أدان تقليد الأشهر الحرم؛ وبدت المصادر [التاريخية] غير مستريحة للحادث. لقد اكتشف محمد (ﷺ) أنه مهما تكون حربك مثالية في البداية، فسيشوب تلك المثالية أمر ما، عاجلاً أو آجلاً.

وفي النهاية، تلقى محمد (ﷺ) تنزيلاً جديداً، كرر المبدأ الأساسي للحرب العادلة. نعم، لقد كان من الخطأ انتهاك الشهر الحرم، ولكن سياسة قريش في طرد المسلمين خارج دورهم ومدينتهم كانت انتهاكاً أشنع، وأخبر القرآن محمداً (ﷺ): ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾. أما عن القتال في الشهر الحرم، فقد أجاب القرآن:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ مِن شَيْءٍ لَهُ إِذْ يُقَاتِلُونَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] (٧).

قبل محمد (ﷺ) الغنائم، وأكد للمسلمين أنه سوف يقسمها بين المهاجرين بالسوية، وبدأ يفاوض قريشاً على تبادل أسرى الطرفين، يعيد لقريش أسراهم، وتفرج قريش عن اثنين من المسلمين اللذين منعتهما من الهجرة.

ولكن راق لأحد المكيين المأسورين ما رآه من المسلمين في المدينة، فقرر أن يدخل الإسلام ويبقى في المدينة. ويعطى الحادث نموذجاً واضحاً لكيفية عمل محمد (ﷺ) في وضعه الجديد، ولم يكن يستطيع الركون إلى الإجراءات التقليدية. لقد كان يتلمس طريقه خطوة بخطوة، حسب ما تتكشف عنه الأحداث. لم تكن لديه خطة رئيسية يعمل وفقها، ولم يكن - مثل بعض أصحابه المندفعين - متسرعاً في مواجهة الأزمات، ولكنه كان يأخذ وقته ليتدبر الأمور، وفي بعض الأحيان كان يعرق بشدة نتيجة مجهوده في التركيز في التفكير، ثم يخرج بالحل الذي بدا إلهاماً.

بعد شهور قليلة، وخلال شهر (رمضان ٢هـ / مارس ٦٢٤م)، قاد محمد (ﷺ) حملة كبيرة لاعتراض قافلة تجارية يقودها أبو سفيان عائداً من سوريا إلى المدينة (٨).

لقد كانت تلك القافلة إحدى أهم قوافل العام، وقد تطوع الكثير من المسلمين لتلك المهمة، بعدما رأوا نجاح سرية نخلة. خرج حوالي ٣١٤ مسلماً من المدينة إلى ماء بدر، قريباً من شاطئ البحر الأحمر، حيث أملوا أن يكمنوا للقافلة ويهاجموها. مثلت تلك الحملة أحد أهم الأحداث في تشكيل الإسلام في بداية تاريخه، رغم أنها بدت في وقتها مجرد غزوة أخرى، وبقي الكثير من المسلمين المخلصين في بيوتهم بدلاً من الخروج لها، ومنهم عثمان بن عفان، الذي كانت زوجته رقية بنت النبي (ﷺ)، مريضة.

ظهر في البداية أن القافلة ستفلت كالعادة، فقد عرف أبو سفيان بخروج المسلمين، وبدلاً من أن يأخذ طريق الحجاز، اتجه بعيداً عن الساحل، وأرسل لمكة من يستنجد بها. جن جنون قريش مما اعتبرته إهانة محمد (ﷺ) لهيبتها وشرفها، وعزم كل كبارها على الخروج لإنقاذ القافلة. كان أبو جهل بالطبع متلهفًا على معركة، وانحشر أمية بن خلف البدين في درعه، وحتى بعض أعضاء عائلة محمد (ﷺ) خرجوا للقتال ضده، بعد اقتناعهم أنه في هذه المرة تجاوز كل الحدود، فخرج ابنا أبي طالب (عقيل وطالب)، وخرج العباس عم محمد (ﷺ)، وخرج ابن أخي خديجة (حكيم بن حزام) في جيش مكة الألفى إلى بدر لقتال محمد (ﷺ)، ولم يخرج أبو لهب لمرضه.

وفي تلك الأثناء، استطاع أبو سفيان أن يخدع المسلمين ويفلت بقافلته، وأرسل لمكة أنه في الطريق إليها وعلى الجيش المكي العودة. تبين المصادر التاريخية بوضوح أنه عند ذلك أصبح الكثير من القرشيين يريدون العودة بدلاً من قتال أقاربهم، ولكن لم يكن أبو جهل ليفوت تلك الفرصة:

قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرستم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به كل سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجذر وننطمع الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، بعدها، فامضوا. [السيرة النبوية:

ص ٤٢٣] (٩)

وحتى كلمات التحدى التى أعلنها أبو جهل ، لا تتم عن توقع معركة ، فهو يتحدث عن أكل وشرب ورقص ، وليس عن أهوال قتال . لقد تركت قريش حياة الصحارى العربية ، حتى أصبح القتال بمثابة رفاهية تحفظ هبة مكة .

كانت الروح فى المعسكر الإسلامى مختلفة تماماً ، فبعد أن عانى المسلمون من أذى وإرهاب الهجرة ، لم يعد المهاجرون ينظرون للأحداث بشقة قريش ولا بعدم إدراكها لخطورتها . وشاور محمد (ﷺ) رؤساء العشائر أول ما عرف قدوم جيش مكة . كان المسلمون أكثر بقليل من ثلاثمائة بينما كان المكيون أكثر من ألف . خرج المسلمون لغزوة وليس لمعركة مع جيش ، والفرق كبير بين الاثنتين . لم يكن محمد (ﷺ) متمرساً على قيادة الجيوش ، ولم يكن يسعه أن يجبر أهل المدينة على القتال خارجها ، ولكن كان قرار القتال نابغاً من الرجال أنفسهم ، وروى ابن إسحاق قول سعد بن معاذ باسم الأنصار :

قال ابن إسحاق : قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : «أجل» قال : فقد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله (ﷺ) بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : «سيروا وأبشروا ، فإن الله - تعالى - قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم» . [السيرة النبوية : ص ٤٢١] (١٠) .

تمرس الأوس والخزرج على القتال فى حروبهما المستمرة فى يثرب ، خلافاً لقريش التى تجنب الحرب لتزدهر تجارتها . ولكن الفرق فى العدد كان هائلاً ، وتمنى كل المسلمين ألا ينشب قتال .

طوال يومين ، حملق الجيشان كل فى الآخر من طرفى الوادى ، وازدانت قريش فى رونقها بلباسها البيضاء وأسلحتها اللامعة ، وبرغم خطبة سعد بن معاذ ، فقد أراد بعض المسلمين الانسحاب ، وكان هناك خوف كبير فى المعسكر . حاول النبى

(ﷺ) أن يرفع معنويات المسلمين، فأخبرهم أن الله وعده بأن يرسل ألف ملك ليحاربوا في صفه:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأنفال: ٥ - ٩] (١١).

ولكن بينما كانت قريش تحتفل وتشرب، واثقة في أن المسلمين سوف يستسلمون، كان محمد (ﷺ) يتخذ إجراءات عملية، فقد صف جنوده في تشكيلات متقاربة، وجعل موقعهم بحيث يمنعون قريشاً ماء بدر، وعندما تبدأ قريش في قتال المسلمين، تضطر إلى صعود التل والشمس في أعينها. ومع هذا، فعندما رأى محمد (ﷺ) جيش مكة الكبير، رفع يديه داعياً:

قال الطبري: لما كان يوم بدر، ونظر رسول الله (ﷺ) إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيحاً على ثلاثمائة، استقبل القبلة فجعل يدعو يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». وقال أيضاً عن ابن عباس، أن النبي (ﷺ) قال وهو في قبته يوم بدر: «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم». [تاريخ الطبري: ٢/٤٤٧] (١٢).

إذا سمح المسلمون لقريش بأن تعيدهم إلى المدينة، فلن تستطيع الأمة التأثير في بلاد العرب، ولا بد أن بعضاً من عزيمته المعقودة قد انتقل لرجالها. يصف القرآن السكينة التي نزلت عليهم في تلك اللحظات الرهيبة، ثم هبوب عاصفة ممطرة، مما اعتبروه فألاً حسناً:

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الأنفال: ٨ - ١١] (١٣).

أصبحت قريش أكثر انتباهاً لخطورة الموقف، فبعثت عمير بن وهب الجمحي، وكان صاحب قداح، فقالوا: احزر لنا محمداً وأصحابه، فصوب في الوادي وصعد، ثم رجع فقال: لا مداد لهم ولا كمين، القوم ثلاثمائة، إن زادوا زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيراً وقرسان. يا معشر قريش، رأيت البلياء تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي؛ والله ما أرى أن تقتل منهم رجلاً حتى يقتلوا منا رجلاً، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير العيش بعد ذلك؟! فروا رأيكم.

وقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا.

ولكن كان أبو جهل ضد أي منطوق، واتهم من يعترض على القتال بالجبن، تلك الوصمة التي لا يحتملها أي عربي، فقد أفسد أبو جهل الرأي وحرش بالناس وأمر عامر بن الحضرمي أن ينشد أخاه عمراً، وكان قد قتل بنخلة، فأشعل بذلك شرارة الحرب، ومقاتل كبار القرشيين:

قال ابن إسحاق: بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت نأرك بعينك، فقم فأشد خفرتك، ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعمره، واعمره. فحميت الحرب، وحقب الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. [السيرة النبوية: ص ٤٢٦] (١٤).

أشعل بذلك أبو جهل شرارة الحرب، وساق كبار القرشيين، وهو من ضمنهم، إلى حتفهم.

ابتدأت قوات قريش في التقدم على كشبان الرمل نحو المسلمين، ورفض محمد (ﷺ) أن يبدأ الهجوم، وحتى بعيد الاشتباك، لم يكن يريد لجنوده القتال حتى قال أبو بكر له إن عليه تنظيم صفوف رجاله وسوف ينصرهم الله.

ومن أول اشتباك، اكتشفت قريش أنها تتورط من سعي لأسوأ! فهي تحارب بتكبر وتهور متظاهرة بالشجاعة، كما لو كانت في استعراض، وبدون خطة، بينما اتبع

المسلمون خطة متقنة، فبدءوا برمي العدو بالسهم، ولم يشتبكوا بالسيوف إلا في نهاية القتال. على منتصف النهار، كانت قريش ولت هاربة في فوضى عارمة، تاركة وراءها حوالي خمسين من قادتها(*) - بينهم أبو جهل - قتلى في ميدان المعركة، ولم يكن هناك بين صفوف المسلمين سوى أربعة عشر قتيلًا. أحاط المسلمون في ابتهاج بأسراهم وجردوهم من أسلحتهم. في حرب القبائل، لم تكن هناك رحمة بالمتهمين، فالمجروحين يمثل بهم، والأسرى بصفة عامة يذبحون أو يعذبون(**). أمر محمد (ﷺ) جنوده أن يمتنعوا عن تلك الأفعال التقليدية، فقد أمره الوحي بأن أسرى الحرب إما أن يعفى عنهم، أو تؤخذ عنهم فدية:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة محمد: ٤ - ٥] (١٥).

حتى في الحرب، تجنب المسلمون عادات الماضي. أصر القرآن باستمرار على أهمية الرحمة والعفو، حتى في الصراع المسلح:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٦] (١٦).

وخلال المعركة، على المسلمين أن يقاتلوا بشجاعة وثبات لإنهاء الصراع بأسرع ما يمكن، ولكن إذا طلب العدو السلام، فعلى المسلمين أن يضعوا أسلحتهم:

﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٢] (١٧).

عليهم أن يقبلوا عرض السلام أو الهدنة. وبالرغم من أنه من الضروري محاربة الاضطهاد والظلم، يذكر القرآن - بصفة مستمرة - المسلمين بأن الأفضل دائمًا هو حل المشاكل بالجدال الحسن:

(*) كان إجمالي عدد القتلى من المسلمين أربعة عشر، ومن المكين سبعون، والأسرى منهم سبعون.
(**) كذلك كان الحال في كثير من بلاد العالم، وحتى قرنين أو ثلاثة من اليوم.

﴿وَأَن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٦١] ﴿سورة الأنفال: ٦١﴾ (١٨).

صحيح أن الله سمح بالقصاص في التوراة، العين بالعين والسن بالسن، ولكن إن عفوا وتصفحوا خير لكم، ويكفر الله سيئاتكم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٧٨] ﴿سورة البقرة: ١٧٨﴾، ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥] ﴿سورة المائدة: ٤٥﴾ (١٩).

ويحصر القرآن الانتقام فيمن أجرموا، أو العفو عنهم. يعتبر ذلك تقدماً كبيراً في قانون التقليدي الذي كان يسمح بالانتقام من أى عدد من أعضاء قبيلة المعتدى. يذكر القرآن المسلمين بأنهم لا يقاتلون قريشاً كلها، وإنما أولئك الذين اعتدوا عليهم، أما الذين بقوا على الحياد، فلا يجب أن يمسه المسلمون بسوء:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [٩٠] ﴿سورة النساء: ٩٠﴾، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٨] ﴿سورة الممتحنة: ٨﴾ (٢٠).

لم يكن محمد (ﷺ) مسالماً لدرجة رفض الحرب بأى شكل وبأى ثمن، واعتقد أن الحرب في بعض الأحيان لا مفر منها، بل وحتى ضرورية. بعد معركة بدر، تيقن المسلمون أن قريشاً ستعمل على الانتقام منهم إن عاجلاً أو آجلاً، وأعدوا أنفسهم لجهاد طويل قاس معها. ولكن المعنى الرئيسي لكلمة «جهاد» التي كثيراً ما نسمعها اليوم، ليس هو الحرب المقدسة، ولكنه بذل الجهد، أو الكفاح، الضروري لممارسة ما أَرَادَهُ اللهُ مِنَ الْمَرْءِ. وعلى المسلمين أن يبذلوا وسعهم في كل المجالات: الشفافية

والاجتماعية والاقتصادية والروحية والعائلية، طبقاً لما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهُمْ، وفي بعض الأحيان سيضطرون للقتال، ولكن ليس هذا واجبهم الرئيسي .

وفي طريق العودة من بدر، أرسى محمد (ﷺ) قاعدة مهمة في حديثه المشهور «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فأصلاح المجتمع وإصلاح القلوب أكثر أهمية وصعوبة من القتال .

أكسبت بدر محمداً (ﷺ) وضعاً أعلى في المدينة، فأبرم ميثاقاً مع قبائل المدينة بما فيها من قبائل اليهود والتي وافقت أن تعيش بسلام مع المسلمين (*)، وعاهدتهم على ألا تعقد أى معاهدات منفصلة مع مكة . كان على كل سكان المدينة أن يدافعوا عنها ضد أى هجوم، وضمن الميثاق الجديد - بعناية - حرية اليهود الدينية، وتوقع منهم المساعدة «في أى حرب ضد من دخلوا في الميثاق» (٢١)(**). احتاج محمد (ﷺ) أن يعرف من يقف بجانبه، وغادر المدينة بعض ممن لم يقبلوا الميثاق، ومنهم بعض الحنيفيين الذين أوجب عليهم ولاؤهم للكعبة أن يوالوا قريشاً . ظل محمد (ﷺ) بالنسبة للعرب شخصية مختلفاً عليها، ولكن بعد انتصاره في بدر، رغبت بعض قبائل البدو في التحالف معه في صراعات المستقبل .

كذلك أملت تغييرات بعائلة محمد (ﷺ)، فقد ماتت ابنته رقية أثناء المعركة، وحزن عليها عثمان حزناً شديداً، ولكن عوضه أن يتخذ أختها أم كلثوم زوجة، وأبقى على علاقته الحميمة بالنبي (ﷺ) .

كان أبو العاص، زوج زينب بنت محمد (ﷺ) الكبرى، من ضمن أسارى بدر، وقد بقى على دين آبائه . أرسلت زوجته زينب من المدينة فديته، مع سوار فضى كان لأمها خديجة . عرف محمد (ﷺ) السوار ففاضت مشاعره وداهمه الأسى . ترك محمد (ﷺ) أبا العاص يعود إلى مكة طمعاً في إسلامه، ولكن أصر أبو العاص على الرفض، واشترط عليه محمد (ﷺ) أن يرسل زينب وابنتهما الصغيرة أمانة ليعيشا في المدينة، فوافق محزوناً . وأن الأوان لزواج فاطمة، فاختار لها محمد (ﷺ) علياً وبنى الزوجان بيتاً قريباً من المسجد .

(*) وكان ذلك قبل وقعة بدر .

(**) اتفق أكثر المؤرخين على أن هذه الوثيقة كانت فور هجرته من مكة .

كذلك اتخذ محمد (ﷺ) زوجة جديدة، حفصة بنت عمر، والتي مات زوجها. كانت جميلة وأريية تقرأ وتكتب مثل أبيها، وكان عمرها عند ذلك حوالي ثمانية عشر عاماً، وكان لها أيضاً طبع عمر الساخن. سعدت عائشة في الترحيب بحفصة في عائلة النبي، ولم تغر منها كما غارت من الزوجات الأخريات، فقد جعلت العلاقة المتزايدة الوثاق بين أبي بكر وعمر من ابنتيهما صديقتين، وكانتا تتمتعان بنسج حيل البنات، وبصفة خاصة على سودة، ذات الخيال المحدود والفهم المتأنى.

قد تكون عائشة قد انتقلت لبيت الزوجية في ذلك الوقت، برغم أن الطبرى قال إنها ظلت في بيت أبيها لصغر سنها. كان محمد (ﷺ) زوجاً سهلاً المعشر، وكان يصر على أن تعيش زوجاته في حجرهن الصغيرة المتواضعة حياة اقتصادية، ولكنه كان يساعدهن في أعمال المنزل، وكان يقضى حاجاته بنفسه، فيصلح ثوبه، ويرقع نعله، ويعتنى بشيأه العائلة. وكان يتبسط أكثر مع عائشة، فسبقها في العدو، ومثل ذلك. كان لعائشة لسان فصيح حاد، ولم تكن بأى شكل من الأشكال زوجة خاضعة مستكينة، ولكنها كانت تحب أن تدلل محمداً (ﷺ). تلبس شعرها بالعطر الذي يحبه، وتشرب من القدح نفسه الذي يشرب منه. وفي يوم من الأيام والنبي (ﷺ) عندها منهمكاً في إصلاح نعله وهي تراقبه، رأت على وجهه نوراً ساطعاً، فأخبرته بذلك، فقام إليها وقبلها على جبينها قائلاً: «يا عائشة لعل الله يحسن جزاءك، فلست مصدرراً لسعادتك، كما أنت مصدرراً لسعادتي» (٢٢).

عاش محمد (ﷺ) بحميمية وسط عائلته وأصحابه، ولم ير تعارضاً بين حياته العامة وحياته الخاصة (٢٣). كان يمكن لزوجاته سماع كل ما يقال في المسجد من حجراتهن. سرعان ما لاحظ المهاجرون أن نساء المدينة يختلفن عن نساءهم، وتحكم أزواجهن فيهن أقل مما اعتادوا عليه في مكة، واكتشفوا أن زوجاتهم يلتقطن ذلك من نساء المدينة.

غضب عمر عندما أصبحت زوجته تراجعته وترد عليه بعض ما يريد، وعندما نهرها على ذلك، أجابته ببساطة إن النبي يسمح لزوجاته بجذاله: (٢٤).

قال عمر بن الخطاب: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتى فراجعتنى، فأنكرت أن تراجعنى، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي (ﷺ) ليراجعنه.

وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو، أجاءت غسان؟ (**)

كانت المشاكل تتخمر، ومثل دمج محمد (ﷺ) المتعمد لحياته الخاصة مع حياته العامة ضربة للمجتمع العربي الذكوري، والذي لا يرضى إلا بالمحافظة على مثل هذه التفرقة بين الرجل والمرأة.

بعد خمود فورة الانتصار، وجد محمد (ﷺ) أنه بالرغم من ارتفاع مكانته في جزيرة العرب كلها، فإن الخوف من هجوم مكى وشيك، نفخ في روح المعارضة المدنية لمحمد (ﷺ). دعمت ثلاث قبائل يهودية كبيرة ابن أبي وجماعته: بنو النضير، وبنو قريظة وبنو قينقاع، والتي اعتمدت على تجارتها مع قريش، ولم ترد أي دور في الحرب ضد مكة. وبعد بدر بحوالي عشرة أسابيع، قاد أبو سفيان غزوة رمزية من مائتي رجل إلى قرب المدينة، وتسلسل تحت ستار الليل إلى أراضي بنى النضير، حيث استضافه رؤسهم سلام بن مشكم، والذي أطلععه على أسرار المسلمين، طبقاً لرواية ابن إسحاق:

قال ابن إسحاق: غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذي الحجة، وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة، فكان أبو سفيان، كما حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، ويزيد بن رومان، ومن لا أتهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار، حين رجع إلى مكة، ورجع فل قريش من بدر، نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ﷺ)، فخرج في مائتي راكب من قريش، ليبر يمينه، فسلك النجدية، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب، من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل، حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حبي بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه وسقاه، وبطن له (***) من خبر الناس. [السيرة النبوية: ص ٥١٢] (٢٥).

داومت عيون محمد (ﷺ) على اطلاعه بمجريات الأمور، ومثلت القبائل اليهودية الثلاث خطورة أمنية. فلكل منها جيشها الكبير وجنودها المدربون، فإذا عسكر

(*) رواه البخاري في: المظالم: حديث (٢٤٦٨)، والنكاح: حديث (٥١٩١)، وبين الحديث أن قبائل غسان المسيحية بالشام، كانت تعد مع القوات البيزنطية لغزو المدينة، وهذا أحد أسباب غزوة مؤتة. (***) بطن له: أعلمه.

جيش مكي جنوب المدينة حيث أراضى بنى النضير وقريظة، فما أسهل أن تتحد قواهم ويخترقوا دفاعات المدينة. وإذا هاجمت قريش من الشمال، وهذا هو الأفضل لهم، يمكن لبني النضير وبني قريظة أن يهاجموا المسلمين من الجنوب. ولكن كان القلق الأكثر إلحاحاً هو بنى قينقاع، أغنى القبائل اليهودية، والحليف السابق لابن أبي، الذي يتحكم في سوق وسط المدينة^(٢٦). أسس المسلمون سوقاً صغيراً لا يتقاضى فائدة، مما اعتبرته بنو قينقاع تحدياً مباشراً لهم، فقررت إنهاء معاهدتها مع النبي (ﷺ) والانضمام لمعارضته في المدينة. زارهم محمد (ﷺ) في حيهيم، وسألهم باسم ديانتهم المشتركة أن يحافظوا على السلام:

قال ابن إسحاق: إن رسول الله جمع بنى قينقاع بسوقهم، ثم قال: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»، قالوا: يا محمد، إنك ترانا كقومك! لا يغرناك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. [السيرة النبوية: ص ٥١٣، ٥١٤] (٢٧).

انسحب محمد (ﷺ)، وانتظر متجهماً تطور الأحداث معهم. بعد أيام قليلة، ثار اشتباك في سوق بنى قينقاع عندما أهان أحد الصاغة امرأة مسلمة، وطلب من محمد (ﷺ) التحكيم، ولكن رفض رؤساء بنى قينقاع حكمه، وتترسوا في حصونهم، ودعوا حلفاءهم العرب لمساعدتهم. كان لبني قينقاع جيش من سبعمائة مقاتل، ولو استجاب لهم حلفاؤهم، لكان بمقدورهم هزيمة جيش المسلمين، بل واستئصال الأمة الإسلامية كلها.

ولكن صمد العرب بجانب محمد (ﷺ)، ووجد ابن أبي نفسه وحيداً عاجزاً عن نصر حلفائه، وبعد أسبوعين من حصار المسلمين لبني قينقاع، اضطروا للاستسلام دون قيد ولا شرط، وكان المتوقع من محمد (ﷺ) أن يذبح الرجال ويسبي النساء والأطفال، طبقاً للعقاب التقليدي المتبع، ولكنه استجاب لمناشدة ابن أبي، فأطلقهم جميعاً بشرط أن تغادر القبيلة كلها المدينة فوراً. كانت قينقاع مستعدة للرحيل، بعد أن خاطرت بعداوة محمد (ﷺ)، ولم تقدر شعبيته الجديدة في المدينة. لم يحتج على ذلك لا العرب من حلفاء قينقاع، ولا حتى اليهود الباقون، فقد كان من المعتاد طرد إحدى القبائل من المدينة إثر الحروب الداخلية الضروس قبل

الهجرة، ولم يمثل خروج قينقاع إلا استمراراً للعملية التي سبقت هجرة محمد (ﷺ) (٢٨). لم يتم سفك دماء، ولكن وقع محمد (ﷺ) في مأزق أخلاقي مأساوي، فقد تم تبرير الجهاد ضد قريش على أساس أنها طردت المسلمين من ديارهم، الأمر الذي أدانته القرآن على أنه شر كبير، والآن، اضطر محمد (ﷺ) لأن يطرد قبيلة من موطنها، فوقع بذلك في فخ التقاليد العربية (*).

توقع أهل المدينة الهجوم المكي الذي لا مفر منه. والآن، وقدمات أبو جهل في بدر، وبعده بقليل أبو لهب، أصبح أبو سفيان هو قائد قريش، وما أهوله من عدو.

في آخر الصيف، استولت حملة مسلمين على قافلة مكية كبيرة. لو كان أبو جهل حياً، لرد فوراً، ولكن أبا سفيان لم يسمح لشيء أن يفسد عليه تخطيطه طويل المدى. كثف أبو سفيان إعداده للمعركة، فبنى تحالفاً كبيراً مع قبائل البدو. وما أن انتهى موسم أمطار الشتاء، حتى تحرك جيش مكي من أكثر من ثلاثة آلاف رجل، وثلاثة آلاف جمل، ومائتي حصان، في (شوال ٣هـ / ١١ مارس ٦٢٥م) شمالاً قاصداً المدينة، فبلغها بعد أكثر قليلاً من أسبوع، وعسكر في شمال غرب المدينة في السهل المقابل لجبل أحد (٢٩).

لم يعلم أهل المدينة بذلك الغزو إلا قبله بأسبوع، ولم يتمكنوا من جني محاصيلهم الزراعية، ولكن استطاع محمد (ﷺ) والقادة الذين معه من إحضار الناس من المناطق المحيطة، وتحصنوا في المدينة. حث أصحاب الخبرة على الحذر. كان من الصعب تحمل حصار في بلاد العرب، ولكنهم نصحوا بالبقاء، داخل حصون المدينة، وألا يتورطوا في قتال خارجها مع قريش، والتي ستضطر حينذاك إلى العودة لمكة. من الناحية الأخرى، تحمس الشباب بعد انتصار بدر للخروج لملاقاة قريش، وكانت لهم الغلبة في النهاية، واضطر محمد (ﷺ)، الذي لم يكن قائداً عاماً، إلى النزول لرأيهم الكارثي. رفضت قبائل اليهود قتال قريش، كذلك رجع ابن أبي بقواته ليوامه محمد (ﷺ) قريشاً بأقل من ثلث عدد قواتها. وعندما بدأ الجيشان التقدم للقتال، مشت هند زوجة أبي سفيان مع القرشيات يحمسن الجيش على القتال بأشعار الحرب والضرب بالدفوف.

(*) من الصعب مقارنة اضطهاد وطمع قريش لمحمد (ﷺ) والمسلمين، مما أجبرهم على الهجرة، تاركين بيوتهم وتجاراتهم، وموقف محمد (ﷺ) من بني قينقاع التي انتهكت ميثاقها مع محمد (ﷺ) وبأداته بالعداوة.

هزمت مكة المسلمين بحيلة من فرسانها، وأصيب محمد (ﷺ) حتى فقد الوعي، وانتشرت إشاعة قتله. وفي الواقع، أصيب بالذهول، ولكن لم تتحر قريش الإشاعة، وفشلت في استكمال ما بدأته. استطاع من بقي من المسلمين أن يتراجع بنظام. وأسفرت المعركة عن اثنين وعشرين قتيلاً مكيًا، وخمسة وستين مدنيًا*، بما فيهم حمزة عم محمد (ﷺ) المشهود له في ساحات القتال. وقد مثلت قريش بجث المسلمين، وأخرج حبشى كبد حمزة ليعطيه لهند التي قضمت جزءاً منه انتقاماً من قتل حمزة لأخيها شيبه يوم بدر، ثم جدعت أنفه وأذنيه وأعضاءه التناسيلة، وحثت نساء قريش على تقليدها، واتخذن من الأجزاء المبتورة خلاخيل وقلائد، مما أثار اشمئزاز بعض حلفاء قريش من البدو.

وقبل عودة جيش مكة، عرف أبو سفيان ما خيب أمله، فقد كان محمد (ﷺ) ما زال حياً:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله (ﷺ) لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هي بيننا وبينك موعد». [السيرة النبوية: ص ٥٤٢] (٣٠).

كان من الممكن للهزيمة أن تكون أسوأ لو أن قريشاً أكملت مهمتها لإبادة المسلمين. ومع هذا، كان لهزيمة أحد ضرر نفسي فاجع. وعندما عاد محمد (ﷺ) من المعركة مريضاً ومزلزلاً، سمع نواح نساء الأنصار على قتلاهم. استاء المسلمون بشدة من ابن أبي لرجوعه عن القتال، وعندما أراد التكلم في المسجد في يوم الجمعة التالي لأحد، قام إليه رجل من الأنصار فأمسك به، وأخبره أن يصمت، فهرول خارجاً من المسجد في غضب، ورفض أن يسأل محمداً (ﷺ) العفو، وبعد أن كان المنافقون من أتباع ابن أبي مذبذبين، صاروا بعد أحد على عداوة مكشوفة مع المسلمين، وزعموا أن انتصار محمد (ﷺ) في بدر إنما كان فلتة، وأنه جلب الموت والحراب إلى المدينة.

(*) جاء في الرحيق المختوم أنه قد قتل خمسة وستون من الأنصار، ومخيريقي اليهودي الذي قال عنه النبي (ﷺ): «مخيريقي خير يهود، وأربعة من المهاجرين، وسبعة وثلاثون من جيش المكين، بينما جاء في سيرة ابن إسحاق أن جميع من استشهد من المسلمين من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً.

ترك المسلمون الذين ماتوا في أحد خلفهم زوجات وبنات بدون عائل، ونزل الوحي بعد الهزيمة يسمح للمسلمين باتخاذ أربع زوجات، وعلى المسلمين أن يتذكروا بأن الله خلق الناس من نفس واحدة، فكل من الذكر والأنثى متساويان أمام الله :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①
وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ② وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوَلُوا ③﴾ [سورة النساء : ١ - ٣] (٣١).

كثيراً ما تعرض تعدد الزوجات لنقد شديد، على أنه السبب في معاناة نساء المسلمين، ولكن في وقت نزول الآيات، كان يعتبر تقدماً اجتماعياً^(٣٢). قبل ظهور الإسلام، كان كل من الرجال والنساء يتخذ عدة أزواج، فكان يمكن للمرأة بعد الزواج أن تظل في بيت العائلة، حيث يمكن لكل أزواجها أن يزورها. كان ذلك في واقع الأمر دعاية مقننة، ولذلك لم يكن النسب مؤكداً، وكان الأطفال في العادة ينسبون لأمهاتهم. لم يكن الرجال مضطرين للإنفاق على زوجاتهم، ولم يتحملوا مسؤولية أطفالهم^(*)، ولكن كانت تلك فترة تحول في بلاد العرب. أدت فترة الفردية الجديدة إلى أن يصبح الرجال أكثر اهتماماً بأولادهم، وبأملآكهم الشخصية، وأرادوا أن يرثها أولادهم. شجع القرآن الاتجاه إلى مجتمع أكثر أبوية، وصدق محمد (ﷺ) على ذلك عملياً بأن يجمع زوجاته في بيوته، وينفق عليهن، وضمنت آيات تعدد الزوجات في سورة النساء أن يفعل رجال المسلمين ذلك. كان القرآن مدركاً للمشاكل الاجتماعية التي خاطبتها تلك الآيات.

لم تكن النساء قبل الإسلام تستطيع أن تمتلك شيئاً في بلاد العرب، فكل الثروات لدى ذكور العائلة، إلا في مكة حيث كان الناس مختلفين قليلاً عن بقية الجزيرة، فاستطاعت بعض النساء الحصول على الموارث والاحتفاظ بالثروات وإدارتها بالتجارة أو غير ذلك، وكانت خديجة مثلاً على ذلك، وإن كان نادراً في مكة، وليس له مثيل في المدينة. سخر معظم الرجال من فكرة أن ترث المرأة، أو تدير ^(*) يبدو أن الكاتبة تتحدث عن انتشار الزنا، وليس الزواج، فالعرب كانوا يقتلون أطفالهم من البنات خوفاً من أن يجلبن عليهن العار عندما يكبرن.

أموالها . ليس للنساء حقوق شخصية ، كيف يكون لهن؟ وباستثناءات قليلة ، لم يفعلن شيئاً لمصلحة الاقتصاد ، ولم يشاركن في الغزو ، فهن لم يجلبن أى ثروات للمجتمع . تقليدياً ، كانت المرأة جزءاً من أملاك الرجل ، وبعد وفاته ، تؤول زوجاته وبناته إلى وريثه الذكر ، والذي عادة ما يقيهن بدون زواج ، حتى يتحكم فيما لديهن ، ويغتنى على حساب فقرهن . جاء نظام تعدد الزوجات - طبقاً للقرآن - بمثابة قانون اجتماعي ، ليس بغرض مكافئة الشهية الجنسية للرجال ، ولكن لرفع الظلم عن الأراامل واليتامى ، وبصفة عامة عن النساء اللاتي كن معرضات للظلم . كثيراً ما يستحوذ بعض الأثانيين على كل شيء على حساب الضعفاء^(٣٣) . كذلك كان كثير من النساء يتعرضن للاعتداء الجنسي ممن يُفترض أن يكونوا حماتهن من الوارثين الذكور ، أو حتى يتحولن إلى أملاك تباع في سوق العبيد ، وكان ابن أبي ، على سبيل المثال ، يجبر إماءه على الدعارة لحسابه . رفض القرآن ذلك بحسم ، وضمن للمرأة نصيباً في الميراث . كان الهدف من تعدد الزوجات ضمان حماية المرأة بأن تتزوج بكرامة ، وحدد التعدد المفتوح السابق^(*) بأربع زوجات ، مع وجوب معاملتهن بالعدل ، مع الامتناع عن سلبهن ممتلكاتهن .

كان القرآن يحاول إعطاء النساء حقوقاً لم تتمتع بها نساء الغرب إلا في القرن التاسع عشر . كان تحرير المرأة مشروعاً عزيزاً على قلب النبي (ﷺ) ، ولكن عارضه بشدة كثير من الرجال في الأمة ، ومنهم بعض المقربين إليه . احتاج تعدد الزوجات المستول في ذلك المجتمع قليل الموارد ، إلى كثير من الشجاعة والحب ، ليتحمل الرجل مسئولية أربع زوجات بأطفالهن . كان المسلمون يثقون في مساعدة الله لهن :

﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)﴾ وَلَيْسْتَغْفِ الَّذِينَ لَا يُجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)﴾ [سورة النور: ٣٢-٣٣] (٣٤) .

أخذ محمد (ﷺ) زمام المبادرة ، فتزوج زينب بنت خزيمة [أم المساكين] ، وكانت

(*) ليس في نصوص الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والحديث ، ما يحدد عدد الزوجات .

قد فقدت زوجها فى بدر [أو بعد ذلك]. لم يعامل النبى (ﷺ) زوجاته كقطع، بل كن صاحباته، مثلما كان الرجال أصحابه، وعادة ما كان يأخذ إحداهن فى غزواته، ويخيب أمال أصحابه عندما يقضى المساء كاملاً معها. ولم تكن النساء تقبعن خانعات، بل كن تتحركن فى المعسكر بكل حرية، تعاین كل ما كان يحدث. كانت تلك الحرية مألوفة لنساء الطبقة العليا قبل الإسلام، ولكن أثار ذلك حنق عمر، فصاح مرة فى عائشة وهى فى طرف المعسكر قريباً من العدو: «جرأتك تجاوزت الحد. ماذا يحدث لك لو حاقت بنا مصيبة أو أخذوك أسيرة؟» (٣٥).

أعطت حياة محمد (ﷺ) العائلية فرصة لزوجاته لدخول عالم السياسة، وأحسنن بالألفة فى ذلك. لم يمر وقت طويل حتى بدأت النساء الأخباريات الإحساس بذواتهن وقدراتهن، واعتبر أعداء محمد (ﷺ) ذلك أمراً معيباً تجدر مهاجمة محمد (ﷺ) عليه.

كان على محمد (ﷺ) أن يستعيد هيئته بعد أحد، لم يكن يستطيع أن يخاطر بواجهة أخرى مفتوحة مع قريش، ولا أن يظهر ضعفه. وأظهرت حادثتان فى عام (٤هـ / ٦٢٥م) ضعف وضعه. سألت قبيلتان من نجد محمداً (ﷺ) أن يرسل من يعلمهما الإسلام، فأرسل ستة من أقدر الصحابة على ذلك، ولكن خلال رحلتهم، هاجمهم رجال من قديد، مدينة مناة، إحدى الغرانيق. قتل ثلاثة من المسلمين، وأسر الثلاثة الآخرون، وحين حاول أحدهم الفرار رموه بالحجارة حتى قتله، وبيع الاثنان كعبيد فى مكة، ثم تم قتلها خارج الحرم.

وفى الوقت نفسه تقريباً، طلب، أبو براء رئيس قبيلة عامر من النبى (ﷺ) أن يرسل من أصحابه من يدعو أهل نجد للإسلام. أرسل محمد (ﷺ) أربعين مسلماً، ذبحتهم كلهم تقريباً قبيلة سليم، وأثناء هروب أحد المسلمين، مر على رجلين نائمين من بنى عامر، فقتلها مفترضاً أن قبيلتهما مسئولة عن قتل رفاقه، أخذاً بالشار طبقاً للتقاليد القديمة.

وعندما عاد إلى المدينة، أخبره محمد (ﷺ) بخطفه، ولكن كانت عادة الثأر متأصلة فى العرب، حتى أنه كان من شبه المستحيل التخلى عنها. أصر محمد (ﷺ) على دفع الدية كاملة للقتيلين، وأدى تصميم محمد (ﷺ) على دفع الدية، برغم حقيقة أن الفاعل الحقيقى للجريمة هو قبيلة سليم، إلى ميل بعض البدو إلى المسلمين. كذلك أدت شجاعة المسلمين الذين قتلهم سليم إلى أن أسلم بعض أفرادها.

ظل وضع محمد (ﷺ) في المدينة محفوقاً بالمخاطر، ولم يستطع التخلي عن حرسه. وعندما طلب من بنى النضير مساعدته في جمع مال دية قتيلي بنى عامر، كادت مؤامرة دبرها بعض أفرادها، بإلقاء صخرة ضخمة فوقه، أن تقضى عليه. وعدهم ابن أبي بمساعدتهم، وظنوا أن محمداً (ﷺ) أصبح بلا تأييد في المدينة، وأن أهلها سيقفون وراءهم. ولذلك أدهشتهم رسالة مقيتة من قبيلة الأوس، حليفتهم السابقة، بأن نضير نقضت عهدها مع النبي (ﷺ)، ولذلك فإن عليها مغادرة المدينة.

تصرف بنو النضير كما تصرف بنو قينقاع من قبل، فترسوا في حصونهم، وانتظروا مساعدة حلفائهم، ولكن دون جدوى. بل إنه حتى بنو قريظة أخبروهم أن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم ولا ينتظروا منهم المساعدة. وبعد أسبوعين، تيقن بنو النضير أنهم لا يستطيعون الاستمرار تحت الحصار أكثر من ذلك، وعندما أعطى محمد (ﷺ) أوامره ببدء قطع نخيلهم - في إشارة أكيدة للحرب عند العرب - استسلموا متوسلين النجاة فقط بأرواحهم. وافقهم محمد (ﷺ) بشرط أن يغادروا المدينة فوراً، آخذين فقط ما يمكن أن تحمله جمالهم.

حزم بنو النضير ممتلكاتهم، حتى عتبات بيوتهم، بدلاً من تركها لمحمد (ﷺ)، وغادروا المدينة في موكب يتباهى كما لو كان متصراً. لبست النساء أفضل ما لديهن وتحملت بكل جواهرها، يغنين مع الدق على الدفوف والطبول، شاقين طريقهن شمالاً إلى الشام، وبقي بعضهم في واحة خيبر اليهودية، حيث ساعدوا أبا سفيان على بناء تحالف جديد يحث قبائل الشمال للانضمام إليهم في غزوة الأحزاب التي أرادت استئصال المسلمين^(٣٦).

على مدى سنتين فقط، طرد محمد (ﷺ) قبيلتين قويتين من المدينة، ونظم المسلمون السوق الذي خلا من بنى قينقاع. كما رأينا، لم تكن تلك نية محمد (ﷺ)، فقد أراد أن يوقف دائرة العنف والطرده، وليس أن يستمر فيها. أظهر محمد (ﷺ) أنه ما زال شخصاً يحسب حسابه، ولكن لا بد أنه فكر في عقم مثل هذا النجاح من الناحية الأخلاقية والسياسية أيضاً، فقد بقي خطر بنى النضير في خيبر القريبة.

كان من المناسب الاستفادة من دعوة أبي سفيان للقتال «في العام القادم في بدر» ولكن كان محمد (ﷺ) يغامر بلعبة خطيرة. عليه أن يستعرض القوة، ولكن كانت

قواته مثبطة الهمة عن أن تخوض معركة كبيرة . ومع ذلك ، ذهب إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة رجل ، ومن حسن حظه ، أن أبا سفيان لم يحضر بقواته . لم يتوقع أبو سفيان أن المسلمين سيذهبون إلى بدر ، وخرج مع جيشه للخروج فقط وليس للقتال ، عازماً على الرجوع سرعان ما يعرف أن محمداً (ﷺ) لم يخرج من المدينة . كانت سنة شديدة القحط ، ولم يكن هناك من الحشائش ما يطعم الجمال في رحلتها ، ولذلك مع طعام يكفى أيام قليلة ، عاد أبو سفيان برجاله إلى مكة . وبخه المكيون بمرارة ، فقد جعل البدو يعجبون بشجاعة المسلمين (٣٧) .

في المدينة ، كان وضع محمد (ﷺ) ما زال ضعيفاً :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَأَتَقَسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)﴾ [سورة النور : ٥٣] (٣٨) .

ولكن في الجزيرة العربية ككل ، بدأ المد للصالحه . كلما سمع عن قبيلة بدوية انضمت للتحالف المكي ، أرسل إليها حملة للإمساك بأفرادها وقطعائها ، حتى لو في رحلة لمسافة خمسمائة ميل إلى تخوم الشام . في (جماد أول ٤هـ / ٩ أكتوبر ٦٢٥م) (*) ، علم أن بعض عشائر غطفان تخطط لهجوم على المدينة ، فعمل على منع ذلك ، بأن قاد المسلمين حتى أصبحوا في مواجهة العدو ، في ذات الرقاع ، وتجنب القتال مرة أخرى ، ولكن ظل المسلحون ثلاثة أيام في تلك المواجهة . يوضح كل من الطبرى وابن كثير أن المسلمين كانوا خائفين ، ولكن يبدو أن غطفان كانت خائفة أيضاً . وفي ذلك الجو الرهيب ، نزلت آيات صلاة الخوف :

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (١٠٢)﴾ [سورة النساء : ١٠٢] (٣٩) .

(*) هكذا جاء في سيرة ابن إسحاق ، ويخالفه في ذلك المبار كفورى فى الرحيق المختوم ، ويذكر أن غزوة ذات الرقاع كانت عام سبعة هجرية ، ويقول إن ذلك على خلاف ما قاله عامة أهل المغازى ، ويدلل على صحة تأريخه بحضور أبى هريرة ، وأبى موسى الأشعري تلك الغزوة .

سمحت الآية للمسلمين أن يغيروا من هيئة الصلاة، وأن يصلوا في أكثر من جماعة. وفي النهاية، انتهت المعركة قبل أن تبدأ حين انسحبت غطفان، وعاد محمد (ﷺ) إلى المدينة ظافراً بانتصار رمزي. بينت صلاة الخوف كيف أصبحت الديانة الجديدة محاصرة وفي وضع دفاعي، وفي هذا السياق، يجب أن نتعرف على تراجع القرآن الظاهري عن المساواة الجنسية.

ففي (٥٤ / يناير ٦٢٦م)، توفيت زوجته زينب، بعد ثمانية شهور من زواجها. وبعد ذلك بقليل، تقدم محمد (ﷺ) إلى هند بنت أبي أمية، أرملة ابن عمته أبي سلمة، وأخيه من الرضاع الذي مات بعد أحد تاركاً لها أربعة أطفال.

كانت هند - أو أم سلمة كما كانت تعرف - في التاسعة والعشرين من عمرها، جميلة، محنكة وفائقة الذكاء. كانت كفيلة بتوفير الصحبة التي فقدها النبي (ﷺ) بوفاة خديجة، وكذلك كانت شقيقة أحد قادة بني مخزوم، إحدى أقوى القبائل المكية. وكانت هند في البداية متمنعة عن الزواج بمحمد (ﷺ)، فقد أحبت زوجها حباً شديداً، وهي لم تعد صغيرة، تملكها الغيرة، كما أنها ليست واثقة من قدرتها على الاندماج في عائلة محمد (ﷺ)، هكذا قالت له. رد عليها محمد (ﷺ) بابتسامته العذبة، التي يستسلم لها كل الناس تقريباً، مطمئناً بأنها إذا كانت كبيرة فهو أكبر منها، وأن الله سيذهب عنها غيرها.

كان لها الحق في أن تقلق، فالحياة في المسجد [أي في حجرات زوجات النبي (ﷺ)] ليست سهلة^(٤٠). لقد كانت الحجرات صغيرة جداً، وسقفها منخفضة حتى أنه بالكاد يستطيع النبي (ﷺ) فرد قامته فيها، وكان يقضى مع كل زوجة ليلة بالدور، وكانت حجرة صاحبة الدور بمثابة المقر الرسمي له. لم تكن هناك خصوصية كافية، فزواره لا ينقطعون من المدينة، ثم من كافة أنحاء بلاد العرب، كذلك كانت زيارات بناته وأحفاده. وكان النبي (ﷺ) مغرمًا بالحسن والحسين ولدى علي وفاطمة، كذلك بأمامة بنت زينب، والتي كان يحملها على كتفيه إلى المسجد ويصلى بها. كذلك كان دائماً ما يختلي بأصحابه المقربين: أبي بكر، وزيد، وعلي، وبشكل متزايد عمر.

وبعد أن كان ينتهى من صلاته فى المسجد، يتقاطر الناس حول نبيهم، كل لشأنه، ومنهم من يمسك بتلابيبه، أو حتى يجذبه منها، ومنهم من يصرخ فى وجهه، ومنهم من يتبعه داخل بيته :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ (٤) ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيمٌ ﴿٥﴾ [سورة الحجرات: ٢، ٤، ٥] (٤١).

وحتى داخل بيته كانوا يتزاحمون، وفى بعض الأحيان على الطعام، أو انتظاراً له :

قال ابن سعد: كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته، بادروه فأخذوا المجالس فلا يعرف ذلك فى وجه رسول الله ولا ينسبط يده إلى الطعام استحياء منهم، فعوتبوا فى ذلك فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الطبقات: ١٠/١٦٧] (٤٢).

مثل ذلك ضغطاً على النبي (ﷺ) الذى كان حياً خجولاً شديد الحساسية، غير مطيق لروائح الأجساد والأفواه غير اللطيفة. كان يتقدم فى العمر، وبدأ الشيب يظهر فى شعر رأسه، ومع ذلك كان يمشى بنشاط حتى يكاد من يراه يظن أن قدميه لا تلامسان الأرض، وهو قريب من الستين، وذلك ليس بالعمر الصغير فى بلاد العرب، ولقد أصيب فى أحد، وبدأ الضغط المستمر يلوح عليه عندما كانت المدينة تترقب فى خوف العودة - التى لا مفر منها - للجيش المكى للانتقام، وانقسمت الأمة كما لم تنقسم من قبل (٤٣).

ظهر الشقاق الداخلى بمجرد دخول أم سلمة، المرأة المتميزة، بيت النبوة. استاءت عائشة بشدة، ونما الصدع بين نساء النبي (ﷺ)، والذى انعكس على الأمة. مثلت أم سلمة الطبقة العليا من المهاجرين، بينما كانت كل من عائشة وحفصة أقرب للطبقة الشعبية. واتخذت كل زوجة للنبي أحد الجانبين المتنافسين، وعادة ما اعتمدت أم سلمة على دعم أهل البيت. كان ذلك الانشقاق فى بدايته عند زواج أم سلمة بالنبي (ﷺ)، ولكن سرعان ما ظهر أن الأمة ليست وحدة واحدة، وأن الناس الذين دخلوا الإسلام، توقعوا منه ثماراً مختلفة.

سرعان ما أصبحت أم سلمة المتحدث باسم نساء المدينة (٤٤).

قالت أم سلمة زوج النبي (ﷺ): ما للنساء لا يذكرن مع الرجال في الصلح؟ [تفسير الطبري: ٣٠٠/١٠].

جعلت طريقة عيش محمد (ﷺ) وزوجاته في حجرات مجاورة للمسجد، الذي هو محور حياة المسلمين، زوجات النبي (ﷺ) في مركز اهتمام المجتمع. كانت كل من عائشة وحفصة ما زالت صغيرة، وفي بعض الأحيان سريعة الانفعال وأنانية لحد ما، بينما كانت أم سلمة مختلفة تماماً.

بعد زواج أم سلمة بفترة قصيرة، جاءها وفد من نساء المدينة يسألنها: لماذا لا يذكر القرآن النساء إلا قليلاً؟. توجهت أم سلمة بالسؤال للنبي (ﷺ)، والذي، كعادته، استغرق وقتاً يتفكر في السؤال بجدية. وبعد أيام قليلة، كانت أم سلمة تصف شعرها في حجرتها، فسمعت محمداً (ﷺ) يرتل آيات ثورية في المسجد:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥] (٤٥).

بكلمات أخرى، ستبدأ المساواة الكاملة بين الجنسين، فلكل منهما الواجبات والمسئوليات نفسها، وعندما استمعت نساء المدينة لتلك الآيات، عزم على تطبيق تلك الثورة في حياتهن اليومية (*).

بدا أن الله في صفهن، فبعد زمن قصير، نزلت سورة كاملة عن النساء. لم تعد النساء تورث للموارث الذكور، كالجمال أو نخيل التمر، بل من حق النساء أن يرثن مع الرجال في تركات المتوفين:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [سورة النساء: ٧] (٤٦).

ليس على اليتيمة أن تتزوج بالإكراه من الوصي أو القيم عليها، كما لو كانت جزءاً من الممتلكات المتحركة:

(*). ولذلك هناك قاعدة فقهية بتساوي النساء مع الرجال، إلا فيما جاء فيه نصح صحيح صريح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذُبُنَّ عَنْهُنَّ لَكُمْ مِمَّا كَرِهْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء: ١٩] (٤٧).

وكما كان قبل الإسلام، حافظت المرأة على حقها في الطلاق، برغم أن من حق الزوج رفض ذلك. كان الزوج في بلاد العرب يدفع مهرًا لزوجته، ولكن كانت عائلة الزوجة تأخذ المهر، والآن أصبحت الزوجة تحتفظ بمهرها، ولا يؤخذ منها حتى بالطلاق، وبذلك تم تأمينها. أصرت شريعة القرآن على أن الناس أحرار ولهم حقوق، وينطبق ذلك على النساء:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبِيصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِعُرْضَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلِيَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فِيمَا سَأَلَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخِذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلِهِنَّ فَمَسْكُوهنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِمُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا رِزْقَهَا وَلَا تَضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدًا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا

فصلاً عن تراخٍ منهما وتشاؤراً فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصيرٌ ﴿٢٣٣﴾ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفورٌ حلیمٌ ﴿٢٣٥﴾ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعهوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴿٢٣٦﴾ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴿٢٣٨﴾ فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أستمم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿٢٣٩﴾ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروفٍ والله عزيزٌ حكيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴿سورة البقرة: ٢٢٥ - ٢٤٠﴾ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثمًا مبيناً ﴿٢٤١﴾، [سورة النساء: ٢٠]، ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴿٢٤٢﴾ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروفٍ أو فارقوهن بمعروفٍ وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴿٢٤٣﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴿٢٤٤﴾ واللاتي يسنن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴿٢٤٥﴾ ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴿٢٤٦﴾ أسكنوهن

مَنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقِهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلْنَ
فَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ
بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْ تَرْضَعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ
رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا
(٧) [سورة الطلاق: ١ - ٧] (٤٨).

مَثَلُ ذَلِكَ صَدْمَةٌ لِرِجَالِ الْأُمَّةِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، أَثَارَتْ
غَضَبَهُمْ. لَقَدْ سَحَبَ اللَّهُ امْتِيَازَاتِهِمْ! لَقَدْ كَانُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ حَتَّى
الْمَوْتِ! وَغَضِبَ رِجَالُ الْأَنْصَارِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ، إِذْ هَلْ يَنْتَظِرُ مِنْهُمْ أَنْ يَقْسِمُوا مَزَارِعَهُمْ
لِيُعْطُوا أَنْصَبَةً لَزُوجَاتِهِمْ؟ كَيْفَ يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَعْطِيَ جِزَاءً مِنْ مِيرَاثِنَا لِلنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ
الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَنْ يَكْسِبُوا أَرْزَاقَهُمْ؟ وَهَلْ كَانَ النَّبِيُّ جَادًا عِنْدَمَا
أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ حَتَّى الْفِتَاةُ الْقَبِيحَةُ يُمْكِنُ أَنْ تَرِثَ ثَرَوَةً؟ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ (ﷺ) بِنَعْمٍ
مَطْلُوقَةٍ:

قَالَ الطَّبْرِيُّ: نَزَلَتْ آيَةُ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فِي أُمِّ كَحْلَةَ وَابْنَةِ كَحْلَةَ وَثَعْلَبَةَ وَأَوْسَ بْنَ
سُوَيْدٍ، وَهَمَّ مِنَ الْأَنْصَارِ. كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجَهَا وَالْآخَرُ عَمَّ وَلِدَهَا، فَقَالَتْ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، تُوْفِي زَوْجِي وَتَرْكِنِي وَابْنَتِي، فَلَمْ نُورِثْ. فَقَالَ عَمَّ وَلِدَهَا: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَرْكَبْ فِرْسًا وَلَا تَحْمَلْ كَلًّا، وَلَا تَنْكِي عَدُوًّا، يَكْسِبُ عَلَيْهَا وَلَا
تَكْتَسِبُ، فَنَزَلَتْ «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ». [تفسير الطبري: ٣/ ٦٠٤] (٤٩).

حَاوَلَ الْبَعْضُ أَنْ يَجِدَ ثَغْرَةً فِي التَّشْرِيْعِ، وَلَكِنْ اشْتَكَّتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ (ﷺ)،
وَأَيْدَهُنَّ الْقُرْآنَ.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا
مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَالْأَبْوِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ
كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ
مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ

وَلَدَّ فَإِنْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهَا الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهَا الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاءَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ [سورة النساء: ١١، ١٢] (٥٠).

سألت النساء مطلباً آخر: ما دام الغزو هاماً بشكل حاسم للاقتصاد، فلماذا لا تتسلح النساء له؟ مرة أخرى، أخبرت أم سلمة محمداً (ﷺ) بذلك: قال الطبري: قالت أم سلمة: أي رسول الله، أتغزوا الرجال ولا تغزوا، وإنما لنا نصف الميراث؟ فتزلت ﴿وَلَا تَسْمُنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. [تفسير الطبري: ٤/٤٩] (٥١).

أصاب ذلك المطلب اقتصاد الغزو في قلبه. فقد مثلت المرأة التي تؤسر غنيمة ثمينة، يمكن بيعها، أو الزواج منها، أو استغلالها كخادمة، أو حتى إجبارها على الدعارة. فإذا سمح للنساء بالقتال بدلاً من الانتظار السلبي للأسر، فستنخفض بشكل كبير غنائم الحرب واقتصادها. شق الخلاف الأمة، وحوصر محمد (ﷺ) بالرجال الغاضبين، والذين أحسوا أن الله يسلبهم ذكوريتهم. ولم يفهم عمر - بصفة خاصة - لين النبي (ﷺ) الزائد مع النساء. ولكن وقف محمد (ﷺ) بحزم، وأعلن أن الله وضع مشيئته.

ولكن النساء اخترن الوقت الخطأ للتحرك. لم تكن هناك أي فرصة لأن يقبل الرجال ذلك في وقت تتعرض فيه الأمة للاستتصال. وجد محمد (ﷺ) أن أعداءه في المدينة يحرضون مكاسب سياسية من تلك التشريعات الثورية في إنصاف النساء، ووجد أن بعض أصحابه المقربين يعارضون تلك التشريعات، في تلك الفترة الحاسمة. وصلت الأمور لذروتها في مسألة ضرب الزوجات (٥٢). منع القرآن المسلمين من إيقاع الأذى بالآخرين، وبدأت النساء في الشكوى من ضرب أزواجهن لهن، بدعوى أنه يتم عقابهن كما بين القرآن، وبدأت بعض النساء في رفض معاشرته أزواجهن الذين يضربنهن؛ بل إن فكرة تعرض النساء للضرب دون وجه حق أثارت استياءه (ﷺ):

قال ابن سعد: ما ضرب رسول الله (ﷺ) بيده امرأة قط ولا خادماً، ولا ضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فيكون هو

الذى ينتقم من صاحبه حتى يتتهك حرمت الله فينتقم لله . [الطبقات :
١٠/١٩٣] (٥٣).

ولكنه كان سابقاً لزمانه . رجال مثل عمر ، وابن أبى ، بل حتى أبى بكر الرقيق ،
كانوا يضربون زوجاتهم دون تردد .

عالمًا أن أبا سفيان يحزب الأحزاب لاستئصال المسلمين بالمدينة ، كان على محمد
(ﷺ) أن يهيم الحال لتعبئة الرجال : «حسناً ، اضربوهن ولكن أسوأكم هو من سيلجأ
إلى ذلك» .

قال ابن سعد : إن رسول الله (ﷺ) نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول
الله إنهن قد فسدن . قال : «اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم» . [الطبقات :
١٠/١٩٤] (٥٤).

نزل وحى يبدو أنه يعطى الأزواج الإذن بضرب زوجاتهم ، ولم يتوقع ذلك محمد
(ﷺ) :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ
فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعُظُوهُنَّ
وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النساء : ٣٤ -
٣٥] (٥٥) (*).

(* لا تعمم الآية ضرب النساء ، ولكن تتحدث عن النساء اللاتي يخاف أزواجهن نشوزهن ، أى تعالين
على أزواجهن فعلى الزوج معالجة ذلك : أولاً بالعظة ، وثانياً بالهجر فى المضاجع ، فإذا لم يستقم الحال بعد
ذلك ، فيمكن للأزواج ضربهن ضرباً غير مبرح ، وكفلت الشريعة للنساء الناشزات طلب الطلاق والخلع .
وجاء فى الحديث الصحيح : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى» الترمذى (٣٨٩٥) ، وابن ماجه
(١٩٧٧) ، وقرأ خطبة الوداع فى صفحة ١٨٥ ، ١٨٦ ، وفيها بين النبى (ﷺ) أن ذلك عقاب لمن تجعل
رجلاً يكرهه الزوج يطأ سريها ، أو لمن تأتى بفاحشة مبينة . وفى «صحيح مسلم» عن جابر أن النبى (ﷺ)
قال فى حجة الوداع : «واتقوا الله فى النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً
تكروهن ، فإذا فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .
وقد سألتنا المؤلفة عن مصدرها فى أن آية ضرب النساء نزلت قبل غزوة الأحزاب ، فلم تذكره . وجددير
بالذكر هنا أن بعد حادثة الإفك ، خاض المنافقون فى السيدة عائشة لمدة تقرب من شهر ، ولا يجد النبى
(ﷺ) ما يقوله أى تعرض شرفه وأحب زوجاته ، وبنت أبى بكر الصديق ، أقرب صحابته ، لذلك
الإفك شهراً كاملاً ، والوحى صامت ، فلو كان لمحمد (ﷺ) أن يأتى بشيء من عنده فى القرآن لما سكت
كل ذلك . ولقد توفت أم عائشة بعد وقت قليل من حادثة الإفك ، متأثرة بها .

وقال: «لا أحمّل رؤية رجل يضرب زوجته في فورة غضب».

قال ابن سعد: عن النبي (ﷺ)، قال: «ما أحب أن أرى الرجل ناثراً فريص عصب رقبته على مريته يقاتلها». [الطبقات: ١٠/١٩٤] (٥٦).

أجبره الصراع مع مكة على اتخاذ رؤية وسط، وأن يسلك مساراً كان سيتجنبه في الأحوال الطبيعية. لقد نزلت آيات النساء مع آيات الحرب، والتي - بلا مفر - أثرت على كل الأحداث في المدينة في تلك الفترة (٥٧).

لقد عرف محمد (ﷺ) أنه لن يكون لديه أمل في الإفلات من الاستئصال المكي إذا كانت قواته محبطة.

في (٥٥هـ / مارس عام ٦٢٧م)، تحركت الأحزاب التي جمعها المكيون بجيش جرار قوامه عشرة آلاف رجل نحو المدينة (٥٧). لم يستطع محمد (ﷺ) أن يجمع سوى ثلاثة آلاف مقاتل من المدينة وحلفائه البدو. لم يكن الموقف يسمح هذه المرة بالتهور بالشجاعة، بل حصن المسلمون أنفسهم في المدينة، في منتصف الواحة. لم يكن من الصعب الدفاع عن المدينة، فهي محصنة من ثلاث جهات بالأجراف والسهول ذات الصخور البركانية، وكانت مفتوحة فقط من الشمال.

بنى محمد (ﷺ) خطة سلمان الفارسي، فجمع المسلمون المحاصيل من الحقول المحيطة بالمدينة حتى لا تستطيع الأحزاب تغذية حيواناتها، ثم بدءوا في حفر خندق أمام الجزء الشمالي المفتوح من المدينة. لقد كان ذلك الخندق مدهشاً، إن لم يكن صادمًا للمفاهيم العربية. لم يكن أي مقاتل جاهلي يحلم بأن يضع حاجزاً يمنع القتال بينه وبين عدوه، ناهيك عن احتقاره لحفر الأرض كالعبيد، ولكن عمل محمد (ﷺ) بين أصحابه، ضاحكًا، ومتندرًا بالنكات، ومنشدًا معهم، ساعد على ارتفاع المعنويات.

عندما وصلت قريش بجيشها، تطلعت إلى الخندق في ذهول. استغل المسلمون ما استخرجوه من الخندق لبناء سد مرتفع في جانبهم، أعطاهم ارتفاعه ميزة إطلاق القذائف لأسفل على من يهاجم. تحيرت قريش، فهي لم تر مثل تلك الحيلة من قبل، وأصبح فرسانها - مشار فخرها وابتهاجها - عديمي الفائدة. من أن لآخر كان أحد الفرسان يحاول اجتياز الخندق بفرسه، ولكن دون جدوى.

(*) ليس هناك دليل قطعي على نزول تلك الآية قبيل غزوة الأحزاب، وقرأ في خطبة الوداع ما قاله النبي (ﷺ) عن النساء.

قال ابن سعد: ثم أجمع رؤساؤهم أن يغدوا يوماً، فغدوا جميعاً ومعهم رؤساء سائر الأحزاب وطلبوا مضيقتاً من الخندق يقحمون منه خيلهم إلى النبي (ﷺ)، وأصحابه فلم يجدوا ذلك، وقالوا: إن هذه لمكيذة ما كانت العرب تصنعها. [الطبقات: ٦٤/٢] (٥٨).

استمر الحصار لمدة شهر واحد، ولكن بدا هذا الشهر وكأنه لا ينتهي، فإطعام أهل المدينة، فضلاً عن حلفائهم، كان عبثاً كبيراً. اتهم ابن أبي وحلفه محمداً (ﷺ) بأنه جلب الخراب على المدينة:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢) [سورة الأحزاب: ١٢] (٥٩).

دعمت بنو قريظة قريشاً جهاراً، بينما أمد يهود خيبر قريشاً بسرية كبيرة، بها عدد كبير من يهود بنى النضير. حاول حبي بن أخطب، رئيس بنى النضير، إقناع بنى قريظة إما بالهجوم على المسلمين من الخلف، أو السماح بتسريب ألفين من بنى النضير داخل المدينة ليقتلوا النساء والأطفال المختبئين في الحصون. في البداية، ترددت بنو قريظة، ولكن لما رأت الجيش المكي بعدده الهائل، وافق رئيسهم على مساعدة الأحزاب، وإمدادهم بالسلح والمؤن. عندما علم محمد (ﷺ) بتلك الخيانة، تغير وجهه، وأرسل سعد بن معاذ، الذي كان الحليف الرئيسي لبنى قريظة ليتفاوض معهم، ولكن ذلك لم يجد، وفي وقت ما، بدأت قريظة هجوماً فعلياً على الحصون في جنوب شرق المدينة، ولكن جهودها أخفقت، ولمدة ثلاثة أسابيع، لم يكن واضحاً أى جانب ستستخذه.

خاف المسلمون لدرجة الرعب في غزوة الخندق، وصفت سورة الأحزاب ذلك:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٥) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا﴾ (١٦) (٦٠).

كذلك كان أهل المدينة يرتعدون من الخوف داخل حصونهم.

وعلى الجانب الآخر، بدأت أحوال قريش ومن معها من الأحزاب في الانحدار.

لم تكن لديهم مؤن كافية، وأدت قلة خبرتهم العسكرية إلى سهولة انهيار معنوياتهم. وأخيراً، تحطمت عزيمتهم بواسطة عاصفة عنيفة من الرياح دمرت معسكرهم. أدرك أبو سفيان أن الهزيمة لحقتهم، كانت الجمال والخيل تموت، وفشلت قريظة في إمدادهم بالمؤن الكافية، ولم يعد لقواته خيام ولا نيران ولا أوعية لطهى الطعام.

قال أبو سفيان لرجاله: «اجمعوا حاجاتكم فإنني راحل». وفي اليوم التالي، حين نظر المسلمون من فوق السد الذي بنوه، وجدوا معسكر الأحزاب خالياً، فقد رحلوا جميعاً.

قال ابن إسحاق: قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره (*)، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنني مرتحل. [السيرة النبوية: ص 632] (٦١).

ماذا سيفعل محمد (ﷺ) مع قريظة؟ لم يوهن رحيل قريش المعارضة المريرة لمحمد (ﷺ) في المدينة، والتي اقتنعت أن قريشاً ولا بد عائدة للانتقام من الإذلال الذي تعرضت له، وبالتالي كثفت المعارضة حملاتها ضد محمد (ﷺ). كانت المدينة على أعتاب حرب أهلية، وفي هذا المناخ القابل للتفجير، لم تكن بنو قريظة لتفلت من العقاب. في اليوم التالي لرحيل الأحزاب، أحاطت قوات محمد (ﷺ) ببني قريظة، والذين سألوه الخروج بشروط قينقاع أو النضير، ولكن محمداً (ﷺ) رفض هذه المرة، فقد أثبتت بنو النضير أنها خطر على الأمة، حتى وهي بعيدة عن المدينة. وافق كبار بنو قريظة على قبول تحكيم حليفهم السابق سعد بن معاذ، والذي جرح بشدة في المعركة (**)، فحمل على محفة إلى حيث كان محمد (ﷺ) وكبار بنو قريظة، ليحكم في الأمر. سألته بعض القبائل أن يكون رحيماً بشأن بنو قريظة، ولكنه رآهم خطراً لا يؤمن شره، وقضى بأن يقتل رجالهم السبعمائة، وتباع زوجاتهم وأبناؤهم في سوق الرقيق، وتقسّم أملاكهم بين المسلمين. عندما سمع محمد (ﷺ) ذلك الحكم قال: «لقد حكمت عليهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». وتم تنفيذ الحكم في اليوم التالي.

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ) لسعد «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». [السيرة النبوية: ص 636] (٦٢).

ذلك الحكم الذي تقشعر له الأبدان اليوم، كان يتوقعه الجميع في بلاد العرب في ذلك الوقت، بل إنه طبقاً للمراجع التاريخية، حتى بنو قريظة لم يفاجئهم الحكم (***) . أرسل الحكم إشارة مروعة ليهود خيبر، وأدرك البدو أن محمداً (ﷺ) لن يتقاعس عن الانتقام. لقد أظهر قوته في عرض للتحدى، على أمل أن يردع أي

(*) كان ذلك حيلة نعيم بن مسعود الذي خدع قريشاً وبنى قريظة عندما أخبر كلاهما أن الآخر يخطط لما يضره.

(**) توفي بعد غزوة بنو قريظة بأيام قليلة، متأثراً بجراحه.

(***) علم بنو قريظة أن الأحزاب جاءت لاستئصال المسلمين كلهم، وما يتبع ذلك من استرقاق نسايتهم وأطفالهم، ومع ذلك انتهكت ميثاقها مع المسلمين لحساب الأحزاب.

قوى عن محاربهته . كان التغيير قادمًا على ذلك المجتمع البدائي البائس ، ولكن كان العنف والقتل بذلك المستوى ، هو العرف السائد ، وإلى حين^(٦٣) .

ولكن أظهرت الحادثة كيف سيكون محمد (ﷺ) في المستقبل . ومن المهم ملاحظة أن قتل بنى قريظة لم يتم على أسس دينية أو عرقية ، ولم تعترض قبائل اليهود الأخرى في المدينة على القتل ، ولم تحاول التدخل لمنع ، فقد رأته عملية سياسية وقبلية بحتة ، ولقد أعدم عدد معتبر من قبيلة كلاب ، حلفاء بنى قريظة معهم . لم يكن لدى محمد (ﷺ) معركة ثقافية ضد الشعب اليهودي ، فقد قال : « من آذى يهوديًا أو مسيحيًا ، فأنا خصيمه يوم القيامة » وقال : « من آذى ذميًا فقد آذاني » . فقد أدين قريظة بتهمة الخيانة ، وظلت القبائل اليهودية السبع عشرة تعيش في المدينة في أجواء ودية مع المسلمين ولعدة سنوات ، واستمر القرآن في إصراره على تذكير المسلمين بقرابتهم الروحية لأهل الكتاب :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة العنكبوت : ٤٦] (٦٤) .

بعد ذلك ، وطوال تاريخ الإمبراطوريات الإسلامية ، تمتع اليهود بالحرية الدينية ، ولم تصبح معاداة السامية^(*) رذيلة لدى المسلمين إلا في منتصف القرن العشرين عندما اشتعل الصراع العربي الإسرائيلي .

ربما قد بدت مأساة قريظة أمراً ملائماً للعرب في زمن محمد (ﷺ) ، ولكنها ليست مقبولة اليوم ، ولا كانت ما أراد محمد (ﷺ) إنجازها . كان يريد إنهاء عنف الجاهلية ، ولكنه أصبح يتصرف مثل باقى قادة القبائل العربية . لقد أحس أن الحرب فرضت عليه حتى يتمكن من إنجاز سلام دائم ، ولكن القتال أشعل قتالاً ، وأفرزت دائرة العنف شراسة وفظائع انتهكت تعاليم الإسلام الأساسية .

وعندما ركب ناقته مغادراً قريظة ومتجهاً إلى مدينة تموج بالاستياء ، فلا بد أنه أدرك أن عليه إيجاد طريقة أخرى لإنهاء الصراع . عليه أن يتخلى كلية عن أسلوب الجاهلية ، ويبتكر حلاً جديداً ومختلفاً ، تماماً .

(*) معاداة المسلمين للسامية مصطلح حافل بالأخطاء السياسية والدينية . فطبقاً للكتاب المقدس ، العرب ساميون ، وكرهت أوروبا - التي ظهر فيها المصطلح - اليهود لأنهم يهود ، والعرب يعادون الصهيونية والظلم الذى أوقعته الدولة اليهودية على الفلسطينيين ، ودفعت المنطقة العربية ثمنًا فادحًا لقيام دولة إسرائيل ، أو دولة اليهود ، لمدة تزيد على سبعة عقود ، وما زال الدفع مستمرًا ومتزايدًا .